من أبطالنا الخالدين
عقبة بن نافع

د.محمد الشريف قاهر*

في أواخر سنة إحدى وعشرين وستمائة ميلادية (621م)، بشرّ نافع ابن عبد القيس بن لقيط الفهري القريشي بولد ميمون النقيبة أسماه "**عقبـــة**"، فأقيمت لهذا الحدث السعيد الحفلات والأفراح، واجتمع عند نافع جماعة من أصحابه القريشيين، وأهل الثراء، والجاه، جاءوا يهنئون نافعا، وعائلة ابن عبد القيس بهذا الولد الجديد، الذي يخرج إلى الدنيا في مكة وأهلها في جدال عنيف، وخصام شديد، وحرب نفسية مريعة بسبب انقسامهم حول هذه الدّعوة الجديدة، التي جاء بها "**أخوهم محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب**"، واستفحل أمرها، وأصبح لها أنصار، ومؤيّدون في مكة، وخارج مكة، وأضحى القريشيون لا حديث لهم، سوى تتبع حركات محمّد، وأنصار محمّد، وهم يعلمون العلم اليقين أن صاحب هذه الدّعوة لن يستكين ولن يلين حتى تنتصر دعوته أو يهلك دونها. وقد عرضوا عليه المال الكثير، والجاه العريض، والملك والرئاسة، على أن يترك هذا الأمر، ولكنّه أعرض عنهم كلّ الإعراض، ومضى في سبيل دعوته جادا بخطى وئيدة، وبقلب مؤمن بالانتصار وإن طال عليه الانتظار.

* عضو المجلس الإسلامي الأعلى، أستاذ علوم القرآن والحديث بجامعة الجزائر، وأستاذ أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي بالمدرسة العليا للقضاء - الجزائر.

إنّ هؤلاء المعاندين الحاقدين من أهل مكّة، قد أغلقوا على أنفسهم أبواب التفكير، واستعمال العقل، فيما يدعوهم إليه محمّد ﷺ، وجعلوا بينهم وبين الإسلام ستارا من حديد، وحجابا من الكفر والعناد، تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، وتراهم يحدّثونك وهم لا يعقلون، وتراهم جالسين معك وهو لا يفقهون، فهم يسمعون منك كلّ شيء إلاّ الحديث عن هذا الدّين الجديد، ويفكّرون معك في كل شيء، إلاّ فيما جاء به ابن أخيهم محمّد بن عبد الله الأمين، في مثل هذه الظروف الحرجة، ولد عقبة ورأت عيناه الدنيا بما فيها من نور الإسلام وظلام الكفر والطغيان، وفي السّنة الثانية من عمره (623م)، حدثٌ عظيم له أهميته الكبرى في الحياة العربية، بل في تطور المجتمع الإنساني كلّه، هذا الحدث الهائل هو هجرة الرّسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة المنورّة، حيث وضع الحجر الأساسي للدّولة الإسلامية الناشئة، وتزعزع لهذا الأمر عظماء قريش، وشعروا بالخيبة والخزي اللذين ينتظرانهم إن عاجلا وإن آجلا. وفعلا لقد تحقّق حلم المسلمين بإنشاء الدّولة الإسلامية المبنية على العدالة الحقّة، فلم تتوال إلاّ بضعة أعوام، حتى انتصر محمّد ﷺ، وعلا نجم الإسلام، فافتتحت مكّـــة، وآمن أهلها مكرهين أو راغبين، ساخطين أو مقتنعين، واستقام الأمر لدين الله، وانتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، انتشار أشعة الشمس في الصحراء الواسعة، في مثل هذا الجو، ترعرع عقبة، ونشأ في جو كلّه حماس وجهاد، واستماتة وكفاح، فكانت أعزّ أمانيه أن يصبح قائدا من قواد الإسلام العظام، ورائدا من روّاد الدعـــوة إلى الحـــق والهداية والإسلام. وسيفا مسلولا يسحق الظلم والظالمين،

والكفر والجاحدين، فربّاه أبوه نافع على حبّ الجهاد، ونشر راية العروبة والإسلام في أنحاء المعمورة، وأنشأه شأن كلّ العرب آنذاك على ركوب الخيل، ومقارعة الأقران، ومجالدة الشجعان، فاختلط الإسلام بلحمه ودمه، وكانت أولى الكلمات التي طرقت سمعه الخروج إلى الجهاد، فكان يسمع أحاديث النّاس في الشوارع والبيوت وفي النوادي والمسجد الحرام عن انتشار الإسلام في أماكن عديدة خارج الجزيرة، وكان يُلقي السمع إلى أحاديث أولئك الأبطال، الذين يعودون إلى المدينة، وإلى مكّة، وإلى الشّام، وإلى العراق، وكان عقبة كغيره من الشبّان، يتمنّى أن تتقدّم به الأيام سريعا ويصبح شابا قويا ليشارك في نشر الإسلام في أرجاء الأرض، وكأني أراه يتوسل إلى القائد العظيم والداهية المحنك ابن خالته "**عمرو بن العاص**"، أن يصحبه معه إلى فتوح الشّام، ويلقى به في المعامع، ويعده أن لا يرى منه إلاّ ما يسرّه ويسرّ المسلمين، ويشرّف الإسلام، من شجاعة وإقدام، ولكن القائد الكبير يضربه على كتفيه بلطف وحنان قائلا له "أنت لا تزال صغيرا يا ولدي"، والمستقبل أمامك، فسوف تصبح رجلا، ويستفيد الجيش الإسلامي منك ومن أمثالك في وقت الحاجة. أمّا الآن فللإسلام جنود، ولدين الله أنصار، وللجهاد في سبيل الله أبطال ورجال. ولكن عقبة يُلحّ في الطلب ويصرُّ، فلم يجد عمرو بدّا من الاستجابة لطلب الشاب الطموح، فيصحبه معه إلى الشّام، ويلازمه في فتح فلسطين والأردن، ويرافقه إلى فتح مصر سنة عشرين للهجرة (20هـ)، فكان ابن خالته عمرو يرعاه ويكوّنه، ويرمي به في أحلك الأيّام، وأشدّ المعامع، حتّى أصبح الشّاب الصغير "**عقبـــة**"، من الأبطال العظام، وقد عجم

عوده عدّة مرّات. فكان خير بطل، وأحسن قائد، شجاعة وبسالة، فصار عمرو يعتمد عليه ويسدّ به الثغرات، وقد صحبه معه إلى فتح برقة، وطرابلس الغرب، بعد أن قضى على الرّوم في مصر، والإسكندرية سنة اثنتين وعشرين (22 هـ)، فلمّا فتح عمرو طرابلس، وبرقة، عاد إلى الفسطاط بمصر، بإشارة من الخليفة عمر بن الخطاب، لأنّ الخليفة خاف أن يشتغل عمرو بفتح شمال إفريقيا فيثب عليه الرّوم في مصر، فيقع الجيش الإسلامي بين نارين، فلا تستطيع الدّولة إنجاده بقوة، وقال: "**إفريقيا المفرّقة لا أوجّه إليها أحدا ما غفلت عيني الماء**".[1]

لقد رجع عمرو إلى الفسطاط، أمّا عقبة فقد تركه في برقة في كتيبة من الجيش لحفظ الثغر، ويعلّم من أسلم بها من البربر الإسلام ومبادئه، وينشر الدين الإسلامي في ربوع ليبيا، التي أصبح فيها عدد غير قليل من المسلمين، وفي هذا الوقت، تمكّن عقبة من فتح **فزّان ووُدّان، ورُويلة**،[2] وهي المدن الكبرى في صحراء طرابلس، وكان عمرو يخاف من النّاحية الغربية برّا وبحرا، فلم يجد أحسن من يكفيه مؤونة الدّفاع، وردّ الهجومات المتوقعة من الروم، لم يجد أفضل من عقبة. وهكذا بقي عقبة في ليبيا مرابطا ومعلّما، وداعيا إلى الإسلام في برقة وحواليها مدّة طويلة، لقد أكسبته هذه الإقامة الطويلة معرفة بطبائع البربر، وأخلاقهم، وعاداتهم التي لا تبعد كثيرا عن عادات وأخلاق العرب. وبقي في هذا الثغر إلى أن جاء الوالي الجديد لمصر، عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة خمس وعشرين

---

[1] – *طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبي العرب محمد بن تميم القيرواني، ص: 67، الطبعة الثانية 1985.*

[2] – *انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، 366/5*

(25هـ) مكان عمرو بن العاص، وفي نيته الجهاد وفتح شمال إفريقيا، فلما استقر الوالي الجديد على مصر ودرس أوضاع شمال إفريقيا ورأى أنّ الوقت مناسب لفتحها، راسل الخليفة في الأمر، وبيّن له فوائد هذا الفتح وبعد مشاورة الصّحابة وأهل العقد والحل، أذن له الخليفة **عثمان بن عفّان** بذلك، وجهّز له جيشا قويّا فيه جمعٌ من أقطاب الصحابة والتّابعين، وأعان الخليفة الجيش بماله الخاص، بألف جمل يمتطيها الفقراء، ويحمل عليها الضعفاء. فلما وصل هذا الجيش إلى برقة انضم إليه عقبة بمن معه من العرب، والبربر المسلمين، فاتجه الجميع إلى إفريقيا –تونس اليوم– سنة سبع وعشرين (27)، وبعد شهور أنزل الله فتحه، وقتل جرجير الوالي على إفريقيا من قبل "**هرقل**" ملك بزنطة في معركة سبيطة، وهكذا شاهد عقبة انتهاء دولة جرجير من إفريقيا، وانتصار الحق على الباطل سنة ثمان وعشرين (28هـ/648م)، فتطهّرت بذلك إفريقيا –تونس– وجنوبها ووسطها من أولئك الطغاة المستعمرين البزنطيين، وكان غرض هذا الجيش، مواصلة الجهاد إلى أن يطهّر المغرب الأوسط –الجزائر– والأقصى –كما طهّر الأدنى، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد قتل الخليفة عثمان، وابتدأت بذور الفتنة –لعنة الله على من أيقظها– عاد عبد الله بن سعد إلى مقر ولايته بمصر، بعد أن صالح أهل إفريقيا على جزية يؤدونها للدّولة الإسلامية كلّ سنة، وهكذا توقف الفتح إلى أن استقرّ الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، فيعيّن على مصر واليا جديدا هو "**معاوية بن حديج الكندي**"، ويأمره بإعادة الكّرة إلى فتح شمال إفريقيا بعد سبع عشرة سنة من التّوقف، وذلك في سنة خمس وأربعين (45هـ)، وإتمام ما بدأه عمرو

ابن العاص، وعبد الله بن سعد، ويبعث معه عشرة آلاف مقاتل، فيقوم بعمليات ثلاث ويفتح "سوسة"، و"جلولا" و"بترت"، ثم يعود إلى مقرّ ولايته بالفسطاط بمصر.

ولاية عقبة الأولى على المغرب:

وعند رجوع معاوية بن حديج إلى مصر، رأى معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي، أن يجعل المغرب ولاية مستقلّة، يتولّى أمرها وال يعيّن من الخلافة بالشام، وكان المغرب قبل هذا التاريخ تابعا لمصر، يتولّى أمره الوالي على مصر، واستجاب معاوية لمطلب عقبة الذي ظلّ يلحّ على الخلافة، أن تبعث به في حملة عسكرية لفتح شمال إفريقيا نهائيا، وكان معاوية يعرف مقام عقبة الطويل بإفريقيا، هذه الإقامة الطويلة لا شكّ أنّها قد مكّنته من معرفة أخلاق أهلها، فأصبح من أصلح النّاس لقيادة الجيوش فيها والولاية عليها. كما كان معاوية، يعتقد أنّه لا يستطيع فتح المغرب ونشر الإسلام فيه إلاّ إذا استقرّ المسلمون فيه، وكوّنوا بيئة إسلامية عربية يتأثر بها السكان. فقد كان القواد السابقون يذهبون إلى المغرب، ويقومون فيه بمعارك وغارات، ثم يعودون إلى مصر، والشام، والمدينة، ومكّة، وقد ملأوا رحالهم بالغنائم، والتّحف النّادرة، تاركين من أسلم به من البربر معرّضا للخطر والإهانة من الروم وأبناء عمومتهم، فيعودون إلى الكفر بعد الإسلام، فرأى معاوية الدّاهية المفكر، أن يكوّن لهؤلاء المسلمين الجدد سندا ومركزا، فكلّف عقبة بهذه المهمّة الشّاقة، فسار عقبة واليـــا وقائدا سنة خمسين (50هـ) في عشرة آلاف من العرب والبربر، وكلّه أمل وعزيمة، أن يجعل هذا المغرب عربيا إسلاميا إلى الأبد كلّفه ذلك ما كلفه

من المشاق و الصعاب، وكان الخطر محدقا به من كل جانب، لأنّ السلطة الفعلية العربية تنتهي في برقة، وكان الروم لا يزالون يحتلّون قرطاجنة، وكان البربر موّزعين في الجبال والسهول متخذين لأنفسهم حصونا منيعة على قمم الجبال وعلى شواطئ البحر المتوسط، مستعدين لكل الطوارئ، وكان البربر غير مدركين لغرض الفاتحين، كانوا يعتقدون أنّهم مستعمرون يريدون لبلادهم الخضوع والخنوع.

بناء القيروان:

وهكذا تقدّم عقبة بجيشه الصغير بخطى وئيدة، وبقلب مؤمن بالانتصار، فلمّا وصل إلى تونس التي تبعد حوالي ثلاثة آلاف كلم على الفسطاط، قاعدة العرب العسكرية، فنزل بقمونية قرب القيروان – وكان يؤمن بما يؤمن به معاوية أن فتح المغرب، لن يتم إلاّ باستقرار المسلمين فيه، وأن توطيد أقدام العرب في شمال إفريقيا، مرهون بإقامة قاعدة عسكرية صالحة يستقرّ فيها المسلمون، يهاجمون منها العدو، ويعودون إليها للاستراحة والاستعداد. فقال عقبة لأصحابه من ضباط وجنود: "**إن إفريقيا إذا دخلها إمام تحوموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم بها، وارتدّ إلى الكفر، وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرا وتكون للإسلام إلى الدّهر.**[1] فوافقه الجيش على الفكرة، وقرّروا أن يكوّنوا قاعدة عسكرية قارّة، مثل قاعدة الفسطاط بمصر، والكوفة، والبصرة بالعراق. واختار عقبة لهذا الغرض، منطقة صحراوية تقع إلى الجنوب من قرطاجنة ليست ضاربة في الشمال، فتكون

---

[1]– *الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، 78/1 وطبقات علماء إفريقيا وتونس، ص/56-57.*

جبلية وعرة باردة، يمكن أن يختفي فيها العدو، ولا ضاربة في الجنوب، فتكون رملية لا نبات فيها، ولا شجر، كما أنّها بعيدة عن البحر الذي يمكن أن يداهمهم منه الروم بسفنهم الحربية، وهي بعد كلّ هذا تقع في سهل واسع، كثير المراعي، جيّد الهواء، خصب التربة يسع مدينة كبيرة. ورسم عقبة فيها مسجدا تقام به الصلاة، الذي لا يزال إلى الآن يشهد بعظمة الفاتحين الأوّلين، بمهارتهم في البناء المعماري العتيق، كما رسم فيها دارا للإمارة وأقاموا حولها قاعدة للجيش وبنى الضباط والجنود لأنفسهم دورا في المدينة، ودام هذا العمل المجيد خمسة أعوام كاملة، يبني ويشيّد ويغير على المناطق القريبة فيرهب العدو، ويرعب الروم، وينشر الإسلام، ويدعو إلى المحبّة والوئام. وبعد إتمام عملية البناء، بدأ عقبة يستعدّ لفتح المغرب الأوسط والأقصى وتطهيرهما من المستعمرين، فقد فاجأه الأمر بعزله سنة خمس وخمسين (55هـ)، وتولية أبي المهاجر دينار مكانه.

وكان سيّدنا عقبة مستقيما، فصيح اللّسان، محبوبا من جنده، نزيها في حكمه، شريفا في أعماله، ولكنّه كان يفتقر إلى الكياسة الديبلوماسية. لقد كان شديدا مع البربر، قاسيا في حكمه عليهم، إذ يعاملهم معاملة المرتدين بعد الإيمان، اتّباعا لسنّة الرّسول ﷺ في تساهله مع المشركين، وقسوته مع المرتدين، فيرى عقابهم الفناء، ومحوهم من الحياة، ولذلك نرى عقبة شديدا قاسيا مع البربر، لأنّه يعتبرهم مرتدين ومنافقين، لا كفارا ومشركين. وكان البربر يظهرون استعدادهم للإسلام، في كل مرّة يظهر فيها العرب أقوياء نزهاء، داعين إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن العرب في كلّ مرّة ينسحبون، أو يمضون في طريقهم تاركين من

آمن من البربر، معرضا للإهانة والسخرية من الروم، ومن إخوانهم البربر الذين لم يسلموا، فيعدلون عن الإسلام بعد الإيمان، ويعودون إلى الكفر والشرك بعد الخروج منها.

من يدري؟ لعلّ هذه القسوة الشديدة التي اتّبعها عقبة مع البربر، قد وصلت إلى معاوية، وهو الخليفة الداهية الذي يلين في مواطن اللين، ويشتدّ في مواطن الشدّة، ويرى العنصر البربري من العناصر التي يجب أن يلين معها، ويكتسب ودّها، ويضمّها إلى العنصر العربي فيكوّنان معا سدّا منيعا لحماية الإسلام، والعروبة في هذه الدّيار إلى الأبد.

من يدري؟ لعلّ هذه المعاملة القاسية، قد بلغت معاوية من وليه الجديد على مصر "مسلّمة بن مخلّد الأنصاري" الّذي طلب من الخليفة أن تكون إفريقية تابعة له فكان له ما أراد فعزل عقبة، وولي مكانه رجلا أكثر رحمة، وكياسة، ولينا، وسياسة، ودهاء ديبلوماسيا، هذا الرجل هو "**أبو مهاجر دينار**" ويبدو أنّ سوء تفاهم قد حصل بين الوالي الجديد والوالي المعزول، ممّا أدّى إلى اعتقال عقبة وإهانته، وقيده بالحديد، وإخراجه من القيروان مخفورا بالجيش للخوف منه.

ومن المؤسف حقا، أن يخلي أبو المهاجر دينار القيروان، انتقاما من عقبة ويترل بالجيش قرية تيكروان، القريبة من القيروان. إنّ هذه المعاملة الشّاذة لمدينة عقبة، لشيء مؤلم حقّا، كان الواجب أن يستعين الوالي الجديد بالوالي القديم، ويكمّل ما بدأه الأوّل ويزيد عليه. فإن كان لأبي مهاجر بعض الحق في سجن عقبة، وإخراجه من القيروان مخفورا بالجنود، لأنّه خاف إن هو استعمل اللين معه أن يفسر ذلك ضعفا منه، وخاصة

وهو مولى مسلمة من مخلّد الأنصاري، وعقبة قريشي، عربي، وصحابي، فيطمع فيه الطامعون من الجنود العرب، فاستعمل هذه القسوة غلقا للباب في طريق من تسوّل به نفسه بالمعصية والخروج على الطاعة.

من يدري؟ ولعلّه خاف إن سمع بهذا الخلاف الأعداء وهم محدقون بهم، يتربّصون بهم الدّوائر أن يستغلوه. إذا كان لأبي المهاجر بعض العذر في معاملة عقبة بالشدّة، فلا نجد له أي عذر يقبله العقل وترتاح له النّفس، ويطمئن إليه الضمير في إخلاء القيروان، التي بناها في الحقيقة المسلمون في صالح المسلمين، وما عقبة إلاّ فرد واحد من أفراد المسلمين.

وهكذا عاد عقبة إلى المشرق مكرها مهانا، والأسف يملأ قلبه لأنّه لم يصل إلى مبتغاه، ولم يكمّل ما كان يتمنّاه، وكان يرجو أن تسمح له الظروف فيغزو المغرب حتى يصبح عربيا إسلاميا إلى الأبد على يده هو ولكن:

ما كلّ يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن

ولاية عقبة الثانية على المغرب:

وبعد خمسة أعوام من العزل عاد عقبة إلى المغرب للمرّة الثانية، واليا وقائدا للجيش، فكان أوّل عمل قام به هو الانتقام من أبي المهاجر، وعامله بالمثل، وقيّده بالحديد، وأعاد الحياة من جديد إلى مدينته **"القيروان"** فنقل إليها الجند والإدارة، فاستعدّ للجهاد ونشر راية الإسلام في ربوع هذا المغرب الكبير، وقد وجد خلفه أبا المهاجر قد مهّد الطريق لفتح المغربين الأوسط والأقصى، لقد أقام ركائز للمسلمين في ميلة، وتلمسان، ووطدّ أركان الإسلام في المغرب الأوسط على الأخص، كما وجد الزعيم

البربري "**كسيلة**" عند أبي المهاجر، وقد أصبح من خواصه، وكان كسيلة، قد أسلم بعد أسره في معركة طاحنة بتلمسان، بين جيش أبي المهاجر وجيش كسيلة، وكان أبو المهاجر ذا حنكة سياسية، وإدارية، فعفا عن كسيلة، وأكرم مثواه لمكانته في قومه ورئاسته، وكفاءته العسكرية والسياسية، ودعاه إلى الإسلام بالحجة والبرهان، وبيّن له أنّ العرب ما جاءوا مستعمرين كما يتخيّلون، ويبث تلك الدّعاية الروم البزنطيّون، وإنّما جاءوا داعين إلى الإسلام، دين الحرية، والعدالة، والمساواة، دين يجمع ولا يفرّق، يوحّد ولا يشتّت، دين يدعو إلى الرحمة والإخاء وينفرّ من العداوة والبغضاء، دين يكره العنصرية ويمقتها، ويجعل مبدأه الأساسي ﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، كلكم من آدم وآدم من تراب**﴾ [1]. بمثل هذه المواعظ الحسنة والحجج الواضحة، بيّن أبو المهاجر غرض المسلمين من فتوحاتهم لكسيلة وإخوان كسيلة، وبهذه الدلائل والبراهين اقتنع كسيلة ورجاله فهدى الله كسيلة للإسلام، فآمن بعد تفكير وروية، وصدّق بعد جدال ومناقشة ودراية، فأصبح من الدّاعين إلى الإسلام، ومن المستشارين المقربين لأبي المهاجر، فساعده على استتباب الأمن في ربوع تلمسان إلى المغرب الأقصى، ودخل البربر في دين الله أفواجا عن اقتناع وحجة وبرهان، ولو استمرت هذه السياسة سياسة الإقناع والمناقشة والحوار والبيان، لأصبح المغرب كلّه مسلما بلا سيف ولا سفك دماء.

---

[1] *الحجرات، 13- انظر خطبة حجة الوداع.*

ولكن عقبة، لم يتّبع هذه السياسة سياسة الرفق واللين، سياسة الإقناع والحجة، فقد اضطغن على كسيلة صحبته لأبي المهاجر ونكّبه، وعامله كأسير حرب، لا كزعيم دخل الإسلام، وقد تقدّم أبو المهاجر إلى عقبة في اصطناعه والاستفادة من تجاربه فلم يقبل، وسمع أبو المهاجر بإهانة عقبة لكسيلة، فأنكر عليه هذه المعاملة التي لا تعود على المسلمين والإسلام بخير وقال له وهو يرسف في الحديد: ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله ﷺ، يستألف جبابرة العرب، كالأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزّه، قريب عهد الكفر، فتفسد قلبه؟ فتوثّق من الرجل فإني أخاف فتكته؟[1] ولكن عقبة رحمه الله القائد العسكري، لم يعر أذنا صاغية لمثل هذه النّصائح، بل يراها ضعفا، ولينا في غير محلّه.

وبعد أن استقام الأمر لعقبة في القيروان، استعدّ للفتح والخروج، وكلّه عزيمة وصمود فخرج من القيروان وعلى مقدّمة جيشه القائد العظيم زهير بن قيس البلوي –كما يذكر ابن خلدون– وأخذ معه أبا المهاجر دينار مقيّدا بالحديد، كما أخذ كسيلة كالأسير ليريهما شجاعته وإقدامه، ودخل المغرب الأوسط متتبعا الطريق السهل متجنّبا السواحل، التي فيها الحصون والمحارس البيزنطية، مبتعدا عن الجبال التي يتحصّن بها البربر، ويتخذونها بيوتا وملاجئ تقيهم ويلات الحروب.

وقد اشتبك مع ملوك البربر، ومن انضم إليهم من الروم بولاية قسنطينة، وحواليها، والتي كانت تدعى إقليم الزاب، وقد كان هذا

1– *الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، 83/1– مطبعة دار الكتاب– الدار البيضاء 1954م.*

الإقليم مزدهرا منذ أقدم العصور، وخاصة في عهد يوغرطة ومسينيسا، وقد سمع عقبة بهذه المنطقة الجبلية الغنية، وأحبّ أن يفتتح بها فتوحاته بالمغرب الأوسط. فقصدها وكان طريقه إليها في شمال **"تبسّة"**، وجبال الأوراس الأشم، فمرّ على **"باغاية"**، وهي حصن بربري قديم ومدينة محصّنة، فالتقى مع أهلها في معركة هائلة، انتصر فيها عقبة، وتحصّن أهل المدينة بحصونهم، وتركهم، متابعا السير إلى "تازولت" فاشتبك مع أهلها، ثم فرّوا إلى حصونهم، وتركوا عقبة وجيشه يواصلان السير إلى عاصمة الزاب "أدنـــة" المدينة العظيمة المحفوفة بالرياض والحدائق، والبساتين، فكانت فاتنة الجمال، والحسن، والكمال، فشبت المعركة حامية الوطيس بين الجيش الإسلامي وأهل "أدنة" من البربر والروم البيزنطيين، فأنزل الله نصره على المسلمين بعد أن سال الوادي بدماء الجانبين، فولّى البربر الأدبار واعتصموا بعاصمتهم الحصينة المنيعة، وتركهم عقبة بعد أن غنم غنائم كثيرة منها الخيل العتيقة التي لم ير العرب أحسن منها، شكلا وخفّة وسرعة مواصلا الطّريق إلى **"تيهرت"** القاعدة المهمّة في المغرب الأوسط، وقد سمع أهلها بمقدم الجيش الإسلامي فاتحا، وزاحفا، فخرجوا لملاقاته خارج مدينتهم، فاشتبكوا معه اشتباكا هائلا كان الانتصار فيه للمسلمين، ثم تحصّنوا بمدينتهم.

وهكذا لم تبق هناك قاعدة تذكر لها خطرها، ولا قوّة يخاف جانبها في المغرب الأوسط، فلم يبق أمام عقبة سوى الاتجاه إلى المغرب الأقصى وإلى قاعدته الكبرى "طنجة"، وكانت هذه النواحي ممهّدة للإسلام من تلمسان إلى طنجة بدون أن تعترضه مقاومة تذكر لأنّ أهلها قد أسلموا،

بفضل أبي المهاجر دينار الذي غزاها من قبل مع مستشاره الخاص كسيلة، فلمّا انتهى إلى طنجة خرج لملاقاته ملكها "**يوليان**" فرحّب بعقبة وجيشه أحسن ترحيب، وقدّم له هدية نفيسة ثمينة عنوان الترحيب وحسن الضيافة، ونزل على حكمه، فأقرّه عقبة على ملكه، وعامله بلطف ولياقة، وأشار يوليان على عقبة أن يذهب إلى السوس الأقصى والأدنى في المغرب الأقصى حيث لا يزال أهل هذه النواحي مشركين فاتجه عقبة بجيشه إلى فتح هذه النواحي وإلى تطهيرها من الشرك وعبادة الأوثان، فأخضعها بعد حروب دامية معها كلّفت الجانبين خسائر كبيرة في الأموال والأرواح، ثم عطف عقبة على ساحل المحيط الغربي وأدخل فرسه في المحيط حتى بلغ الماء صدر الفرس ووقف ساعة يفكرّ في ملك الله، ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا. وقال: اللّهم إني لم أخرج بطرا وأشرا. وإنّك لتعلّم إنّما نطلب السّبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء: "اللّهم إنّا معاندون لدين الكفر، ومدافعون لدين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام".

يا رب لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القرنين مدافعا عن دينك، ومقاتلا من كفرك، وعبد غيرك.[1]

فرجع عقبة أدراجه إلى القيروان وهو قرير العين بما بلغ من أمانيه راضيا كل الرضى بما جاهد في سبيل إعلاء كلمة الحق. وكان طريق رجوعه على شمال الأطلس الصحراوي، لأنّه أقرب طريق إلى القيروان، القاعدة العسكرية الكبيرة بشمال إفريقية.

---

[1] *الاستقصاء، 1/ 82*

استشهاد عقبة:

ولّما وصل عقبة إلى طبنة –بريكة اليوم– من أرض الزاب قرب الأوراس، رأى سكون البربر، حيث لم يجد مقاومة في طريق رجوعه، وظنّ ذلك سكون الاستسلام، لا سكون الحفز للانتقام، فأذن لأغلب جيشه بالالتحاق بالقيروان، ثقة منه بما دوّخ من البلاد، وأذل من البربر، وبقي هو في عدد قليل من جيشه لا يزيد عن ثلاث مائة (300) مقاتل، وجاء على جنوب الأوراس ليعجم قلعة تهودة وباديس ليرى ما يكفيهما لفتحهما، ولّما بلغ تهودة، وهي مدينة تقع جنوب الأوراس، وكان كسيلة الزعيم البربري المهان لدى عقبة، كما يذكر بعض المؤرخين، قد وجد فرصته الثمينة للانتقام فهرب من الأسر وانضمّ إلى جيش **"الكاهنة"** الذي هاجم عقبة من أوراس. ويرى آخرون أن البربر لّما رأوا قلّة جيش عقبة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة سرّا فدلوه على الفرصة فانتهزها ففرّ وأخذ يجمع حوله بني عمّه، ومن سانده من الرّوم، وأخذ جمعه يتعاظم بين ساعة وأخرى ثم زحف على عقبة وجيشه الصغير، وانثالت جموع البربر المتراكمة من كل جهة، ليأخذوا ثأرهم من سيّدنا عقبة وأصحابه المجاهدين، فأسرع عقبة إلى أبي المهاجر وحلّ وثاقه ولسان حاله يقول: ليتني سمعت لنصيحتك، ولكن لا رادّ لقضاء الله وقدره. وقال له: اذهب والتحق بالجيش بالقيروان، أمّا أنا فلا أترك هذه الفرصة في الشهادة تمضي، وقد كنت أبحث عنها من زمان. ولكن أبا المهاجر أبى أن يذهب واختار لنفسه الشهادة، وهكذا تصافح القائدان، وقاتلا معا جنبا إلى جنب، وقد أظهر عقبة وجيشه الصغير شجاعة وبطولة نادرة فقاتلوا قتال

الأبطال، واستماتوا في ساحة القتال، ولكن كثرة عدد الجيش البربري، وخبرته في القتال جعلت الكفة غير عادلة في العدد، والقوى غير متكافئة.

فما زال عقبة وأصحابه، يقاتلون حتى استشهدوا جميعا في ميدان الشرف، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتّابعين، فتعطرت أرض المغرب الأوسط بدماء عقبة وصحبه الكرام، فدفنوا في جنوب **"تهودة"** بمدينة عقبة اليوم.

وهنا نتساءل، كيف يمكن لمثل عقبة القائد العسكري المحنك، الذي عرف البربر وعاش معهم مدّة ليست بالقصيرة، أن يغتر ويبعث بجيشه مسبقا إلى القيروان، ويتخلّف هو في عدد قليل من جيشه، وهو يمشي على أرض ملغمة، كلها نار وثورة عليه؟

وكيف لا يكوّن جهاز المخابرات السّرية التي تطلّع على نوايا السكان وما يكنّه البربر لهذا الجيش الفاتح؟

والذي يبدو لي، أن النّصر العظيم الذي حقّقه عقبة لفتوحاته الجريئة، قد جعلت منه إنسانا مغرقا في الثقة بنفسه، والاعتماد على ما دوّخ من حصون، وقهر من بلاد، ممّا جعله يجزّئ جيشه إلى عدّة وحدات، ويأمرها بالالتحاق بمقر القيادة بالقيروان، اعتقادا منه أن جميع الأشواك التي يمكن أن تعترض طريقه قد أزيلت، كما يحتمل أن يكون افتقاره إلى العطف البربري، قد جعل من المتعذر عليه الحصول على أيّة معلومات على حركات البربر، وما يدبّرونه في السر ضدّه. ويمكن أن يكون اعتداده بنفسه قد حمله على ترك هذه النّاحية المهمّة.

ومهما يقال عن سيّدنا عقبة من أنّه بعيد عن الكياسة في شؤون السياسية، إلاّ أن مزاياه كقائد عسكري محارب تفرض الاحترام له والتّعظيم، فقد زحف مسافة الألف والخمسمائة كيلومتر من القيروان إلى أغادير دون أن يجرأ أحد على مقارعته، وصده عن مقصوده، ومرماه، لا شك أن هذه العملية التي تفتقر إلى المواصلات المنظمة، وإلى التموين وإلى القاعدة العسكرية القريبة هي من أصعب العمليات العسكرية.

ورغم ذلك، فقد نجح عقبة في قطع هذه المسافة الطويلة منتصرا، ولو أنّه أخذ الحذر، و لم يأمر جيشه بالانفصال عنه إلى القيروان، ولو كوّن لنفسه أنصارا من السّكان يحيطونه علما بنوايا البربر وتحركاتهم وأعمالهم السرية، ولو عامل كسيلة وهو الزّعيم، والملك البربري المسلم، بالحسنى، لكان أعظم قائد عسكري، وأكبر سياسي داع إلى الهداية والإسلام.

يرحم الله سيّدنا عقبة برحمات تتبعها رحمات، وأنزل على قبره وقبور أصحابه الغيث العميم، ولو أخذ بأسلوب الشمس في إزالة الظلام، ما ضرّ، لو عمل كأبي مهاجر في قلع جذور الكفر عن هذا المغرب الكبير، بلين ورفق لأفاد أكثر، وممّا لا شكّ فيه أن نيته حسنة، ونية المؤمن خير من عمله، إنّما الأعمال بالنّيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

يرحمك الله يا عقبة، ويا جيش عقبة العظيم، لقد قاسيتم الأهوال المؤقتة، فوق أرض هذا المغرب الكبير لنشر الإسلام والعروبة، والقضاء على الشرك والجهالة. وها أنتم قد فزتم بالفردوس الدّائم تحت أرض هذا المغرب العظيم. ولقد أسلم المغرب كما تريدون، وأصبح عربيا مسلما إلى أبد الآبدين كما تحبّون، وإنّه لقلعة للدّين الإسلامي الحنيف، وسيبقى ما

بقيت هناك أرض وسماء، منبعا للهداية، والنّور، تهتدي به الإنسانية الضّالة الشقية بعبادة المادة والتّكالب عليها.

أمّا أنت يا عقبة فنم هنيئا مطمئنا، تحت أرض الجزائر العربية المسلمة، فقد أثمر جهادك، وكثر جندك، وعظم أجرك، وبوركت أعمالك، وهاهم أحفادك يردّدون اسمك في كل آونة وحين، ترديد إكبار، وإعجاب، يذكرون جهادك في سبيل الله والحق، والعدالة فيقتدون، وهاهم أحفادك قد طهّروا مغربهم العظيم من الاستعمار وظلمه وطغيانه. ومن الأجنبي وأحقاده وعناده، كما طهّرته أنت بسيفك وجهادك، ودمائك وتضحياتك، فطوبى لك لقد تربّيت في مهد الإسلام وعاصرت النبيّ الكريم وأصحابه، وعشت عزيزا بطلا مجاهدا، ومتّ شهيدا عظيما، فسلام عليك وعلى أصحابك المجاهدين السّابقين منهم والمتأخّرين، سلام عليكم يوم ولدتم، يوم استشهدتم، ويوم تبعثون، مع النبيّين والصدّقين والشهداء، والصّالحين، وحسن أولئك رفيقا.

قال ابن خلـــدون: وأجداث الصحابة رضي الله عنهم بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة، وهو في عداد المزارات ومظان البركات. بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض، لما توفّر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحدٌ مُدّ أحدهم ولا نصيفه،[1] حدودها القارّة المحدودة، وكيانها المتحرّر، وجيشها القوي العتيد، لغتها العربية المجيدة، لغة الآباء، والأجداد، لغة عقبة وطارق بن

[1] *الاستقصاء 1/ 83 نقلا عن تاريخ ابن خلدون*

زياد، لغة العلم والتّقدم والحضارة، فجدوا في تعلّمها والاغتراف من بحرها، ومحيطها، وإعطائها ما تستحق من العناية والاهتمام. ولقد أتى عليها حين من الدّهر منعت من أبنائها، كما يمنع الطفل الرضيع من ثدي أمّه، فأصحبت غريبة في أرضها، ممنوعة في مهدها، وأراد الله لها على لسان الشعب، ورجاله العاملين، الحياة والبقاء فيها، هي الآن لغة الدولة والدستور، وغدا ستكون لغة الإدارة والتسيير أحبّ من أحبّ وكره من كره، لأنّ هذه هي إرادة الشعب وإرادة الشعب من إرادة الله.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وآله وصحبه عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك كلّما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين. والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

مصادر ومراجع البحث

1- **البداية والنهاية [1—14] أربعة عشر جزءا في ثمانية مجلدات**

ابن كثير أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر عماد الدين [ت:774هـ -1373م]

منشورات مكتبة المعارف—بيروت: 1410هـ - 1990 م. [عقبة بن نافع 45/8و217]

2 – **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.**

[1-13] ثلاثة عشر جزءا.

خير الدين الزّركلي [ت:1382هـ - 1976م]

الطبعة الثالثة عشرة: 1389هـ - 1969م

مطبعة كرستاتومس وشركاه— بيروت [عقبة بن نافع: 5/77- 38]

3- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد [1-2] جزآن.**

ابن خلدون أبو زكرياء يحي [ت:780- 1378 م]

تحقيق: الدكتور عبد الحميد حاجيات – الجزء الأول

المكتبة الوطنية: 1400هـ -1980م- الجزائر. [عقبة بن نافع 1 /165-156]

4- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب [1 – 4] أربعة أجزاء**

ابن عذاري المراكشي [في 712 هـ كان حيا] حققه جماعة

جـ1و جـ2: ج س. كولان و إ.ليفي بروفنسال

وجـ3 إ.ليفي بروفنسال.

وجـ4 الدكتور إحسان عباس

الطبعة الأولى: 1967م

دار الثقافة: بيروت – لبنان [عقبة بن نافع 1/ 19-30]

5 – **تاريخ العلامة ابن خلدون كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر [1- 7]سبعة مجلدات**

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي [ت:808هـ -1406م] الطبعة الثالثة:1967م

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر – بيروت

[عقبة بن نافع:4 / 398- 400 ، 6/216- 217 ،297-299]

6 - **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك[1-13] ثلاثة عشر جزءا في ستة مجلدات**

محمد بن جرير الطبري أبو جعفر [ت: 310هـ- 923م]

الطبعة الثانية: 1407هـ -1987م [عقبة بن نافع 122/3]

7 - **تاريخ الجزائر في القديم والحديث [1-3] ثلاثة أجزاء**

مبارك بن محمد الهلالي الميلي [ت 1364هـ 1945م]

الناشر: مكتبة النهضة الجزائرية – الجزائر

مطابع بدران و شركاه: بيروت – لبنان :1963م [عقبة بن نافع 2/23- 27]

8- **تاريخ الجزائر العام [1-2] جزآن**

عبد الرحمن محمد الجيلالي

الطبعة الثانية: 1384هـ-1965م

مكتبة الشركة الجزائرية – الجزائر

منشورات دار مكتبة الحياة بيروت [عقبة بن نافع 1/ 167-173]

9- **تاريخ المغرب الكبير[1-3] ثلاثة أجزاء**

محمد علي دبوز [ت:1401هـ -1981م]

مطبعة عيسى البابي وشركاه – القاهرة

الطبعة الأولى ج1 وج3 /1382هـ/963م

وج2 /1384هـ- 1964م [عقبة بن نافع: 2/26-60]

10- **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية [1-2] جزآن**

أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي

[ت: في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري]

حققه: بشير البكوش – راجعه: محمد العروسي المطوي.

الطبعة الثانية:1414هـ-1994م

دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان [عقبة بن نافع 1/ 97-98-32-93]

11- **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى [1-9] تسعة أجزاء**

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري [ت:1315هـ-1897م]

تقديم وتعليق ولدي المؤلف جعفر ومحمد

مطبعة دار الكتاب – الدار البيضاء: 1954م [عقبة بن نافع 1/78-84]

12- **طبقات علماء إفريقيا وتونس**

أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني [ت:333هـ-944م]

تحقيق: علي الشّابي و نعيم حسن اليافي

الدار التونسية للنشر: 1968م [عقبة بن نافع 56-60]

13- **فتوح إفريقية والأندلس**

ابن عبد الكريم عبد الرحمن بن عبد الله [ت:257هـ-871م]

تحقيق وتقديم: عبد الله أنيس الطباع

مكتبة المدرسة – دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر

بيروت: 1964 [عقبة بن نافع: 14-15 و 49 إلى 61]

14-فتوح البلدان

البلاذري أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر البغدادي [ت:279هـ-892م]

مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان

دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: 1412هـ-1991م

[عقبة بن نافع: 229-231]

15-فجر الأندلس

حسين مؤنس

الشركة العربية للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: 1959م القاهرة [عقبة بن نافع: 36- 42]

16-الكامل في التاريخ [1-13] ثلاثة عشر مجلدا

ابن الأثير علي بن محمد عز الدين الشيباني [ت:630هـ-1232م]

دار بيروت- دار صار للطباعة والنشر

بيروت: 1385هـ -1965م [عقبة بن نافع 3/465-467 و4/ 107-108]

17-المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس

ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني [ت:1110هـ 1998م]

دار المسيرة لبنان

الطبعة الثانية: 1993م [الإسلام في المغرب: 37-54]

18-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب [1-8] ثمانية أجزاء

المقري أحمد بن محمد التلمساني [ت:1041هـ- 1631م]

تحقيق: إحسان عباس

دار صادر بيروت – 1388هـ -1968م [عقبة بن نافع 3/ 25]